أما ما نجده الآن من اعتراضات على بعض القصص والروايات والأعمال التليفزيونية والسينمائية وحملات التكفير وفتوى التحريم، كل ذلك لا أعده في سياق نقد الأعمال المبدعة أو الغيرة على الثوابت الأخلاقية؛ وذلك لأننا نعيش في عالمنا العربيّ في طور من العبثيّة والفوضى والعشوائيّة، والإبداع - بطبيعة الحال - أبعد ما يكون عن ما نحن فيه.

ومن أشكال التطرّف أيضًا القراءات والتأويلات؛ فقد كُفِّر نزار قباني؛ لأنه استعار صورة المرأة وجعل منها رمزًا لهموم الأمة وقضاياها، ووسمت أمّ كلثوم بالعهر؛ لأنها غنّت قصائد الحبّ والعشق، وكاد نجيب محفوظ أن يُقتَل؛ لأنه كتب قصة «أولاد حارتنا»، وصودِرَ كتاب «ألف ليلة وليلة»؛ لأنه يروي بين ما يروي ما كان يحدث في المخادع.

أقول: يجب التفريق بين الأعمال الفنيّة التي تقدّم رؤية وإن اختلفنا معها، والأعمال الأدبية الفنيّة الشاغرة من الأدب والفن، فالأولى يجب التعامل معها بالنقد، والثانية بمعايير جودة الفنّ وبالقانون الذي يحافظ على أخلاق المجتمع.

□□□

أيدلوجيا العنف والتطرف الديني

إن مسألة تأويل الآيات وتوجيه الأحاديث ليست بجديدة على ثقافة الفرق، فقديمًا - وتحديدًا منذ الفتنة الكبرى - أخذ الخوارج والشيعة والمجسّمة والسبئيّة والكرّاميّة وغيرها يؤولون ويتبادلون الاتهامات، وفي الفكر الإسلامي الحديث نجد محمد بن عبد الوهّاب وابن عثيمين وابن باز

وأولاد الشيخ يؤولون ويستشهدون بالأحاديث والواقعات التي حدثت من الصحابة والتّابعين، وعلى نفس الدرب سارت كل الفرق المهديّة من المتصوفة أو من الدورز أو من الشيعة المحدثين، وأعتقد أن علة ذلك الجنوح وهذا التجديف وذلك الاجتراء يرجع إلى ثلاثة أمور:

أولها: غيبة الحجة العلمية؛ أقصد أهل الذكر، فلا نكاد نلمح ظهورًا وسطوعًا بنجم هذه الجماعات إلا في تلك الأزمان التي أفل فيها نجم شيوخ الأزهر العظام أو المجددين المصلحين العارفين، فقد نجح حسن العطار في الحد - كما ذكرنا - من تسلل الأفكار الوهابيّة إلى الثقافة المصرية، وقد خلا المجتمع الإسلامي من هذه الجماعات الابتداعية يوم كان الأفغاني ومحمد عبده ينشران أفكارهما في التجديد والإصلاح، ويدفعان عن الإسلام كل أباطيل غلاة المستشرقين، كما أن وجود محمد الغزاليّ ومحمد متولي الشعراوي قد حدّ من غلوّ وتعصّب من أطلقوا على أنفسهم السلفيّين.

وثانيها: تعملق الأقزام واعتلاء غير المتخصصين كراسي الفقه والفتوى ومنابر الدعوة، وتقاعس الأزهريّين في الردّ عليهم أو تقويمهم أو الحدّ من سلطانهم، فالكثير من المساجد تتبع جمعيات خاصة تحت مسميات عديدة، حتى باتت المساجد الإسلامية تنقسم إلى قسمين: إخوان، أو سلفيّين، وأمسى الأئمة الجدد ينتصرون لمن يدفع أكثر، فمنهم البكاؤون، ومنهم المتنطعون، ومنهم الثائرون على السلطة الحاكمة، ومنهم المهيجون للفتنة الطائفية، أو المتحدثون عن فقه النساء أو الحاكمية، أو العلاقة بين الناسخ والمنسوخ، أو يتاجر في القضية الفلسطينية، وشتم ولعن الشيطان الأكبر (أمريكا)، وغير ذلك من الأفاعيل، وقد صاحب تلك الفتاوى والآراء الهشة دعم ماديّ

للمعوذيـن مـن الأتباع في صورة إعانة الشـباب على إيجـاد عمل في تهجيرهم من مؤسسـاتهم، والزواج مـن بنات الجماعة، وأخـيرًا: الإعانات المباشرة في المواسـم، والرعايـة الطبية في العيـادات الملحقة بالمسـاجد، كل ذلك جعل لهاتيك الجماعات سـلطانًا من العسـير نقضه أو تقويمه، فمن ذا الذي يراجع الشـيخ حسّـان ومحمد عبد المقصود وحازم شومان؟ إن كان الأزهريون فهم في عيون أصحاب الطائفة مأجورون وعملاء للسلطة، و إن كانوا إصلاحيّين فهم علمانيّون؛ قليلوا الإيمان وقليلوا العلم.

وثالثهـا: غيبـة المسـتنيرين العقليّين؛ الذيـن كانوا يجمعون بـين الثقافة الإسـلامية والـتراث العـربيّ مـن جهـة، والثقافـة الغربيّـة وأيدلوجيّاتهـا وفلسـفاتها من جهة أخـرى، فلا غرو بأن وجـود التيّار الـذي أطلقوا عليه تيارًا علمانيًّا، وكان يضم مدرسـة الجريدة بقيادة أحمد لطفي السـيّد وقاسـم أمين ومصطفى عبد الرازق وطه حسين والعقاد وعلي عبد الرازق و إسماعيل مظهـر وأمين الخولي وعبد المتعـال الصعيدي وخالد محمـد خالد كان بمثابة رمانـة الميـزان التي تحدّ من شـطط الغلـوّ والتطرف، فقد تصـدى معظمهم لهجمات المسـتشرقين زودًا؛ عن الإسلام، بداية من ردّهم على أرنست رينان، ثم الـدوق داركور ثم كرومـر، وكذا كتّاب دائرة المعارف الإسـلامية التي خطّها أدباء الغرب وفلاسفتهم، ثم ترجمت إلى العربية في الثلاثينيّات، وكانوا أيضًا يضطلعـون بالردّ على الدعاوى الرجعيّة والفتـاوى الجانحة، التي كان يخرجها بعـض المتعصّبين من مشـايخ الأزهر والدراعمـة المتأثرين بالفكر الوهّـابيّ، ولعل كتابات عبـد المتعال الصعيدي عن الحريـة الدينيّة وكتابات محمـد الغزالي وخالد محمد خالد عـن تجديد الخطاب الديني كانت تمثّل ثورة على كل مظاهر الجمود والشـطط؛ أي كان التيّار الليبرالي الحرّ يلعب الدور

الأكبر في توازن العقل الجمعي للثقافة الإسلامية، لا في مصر وحدها، بل في الشام والعراق وتونس وشبه القارة الهندية أيضًا.

والجدير بالإشارة في هذا السياق: أن أبا الحسن الندويّ؛ وهو العلامة الهندي المحترم والمعتمد في فكر معظم الجماعات الإسلامية قد حذر من خلط الفكر الدعويّ بأمور السياسة، كما أكد على أنه لو كان هناك اختيار بين الحفاظ على أمن البلاد في ظل العلمانيّة والثورة الإسلامية التي ترمي إلى تطبيق الشريعة بالسيف لاختار الأولى؛ وذلك لأن الغرض الأساس من الإسلام وشرعته هو توفير الأمن والأمان والهداية للعباد، أما تطبيق الشريعة فمنوط به أولو الأمر وأصحاب الولاية، بداية من الحاكم ورب الأسرة، وعليه: رفض تمامًا كل الحركات المسلحة والجماعات الإرهابيّة التي اتخذت من الإسلام راية له، أكرر: فقد أدى غياب الاتجاه العقلي المستنير عن الساحة الفكرية الإسلامية منذ بداية السبعينيات واعتلاء بعض المتحذلقين والمتغربين والمروجين للفلسفات والأيدلوجيات الغربية دون وعي إلى سطوع نجم الجماعات المتأسلمة، فقد اتخذت هذه الجماعات من تصريحات أولئك المتحذلقين ومدعي الثقافة ضد الدين والطعن في كتب الحديث والتهكم على التراث الإسلامي والتصريح بتبنيهم الإباحية باسم الحريّة، كل ذلك قد استثمرته هذه الجماعات، واتخذت منه فزّاعة للرأي العام، مؤكدةً على أن الإسلام في ظل قيادة هؤلاء سوف يؤول إلى البوار، وتحلّ اللعنة على الجاحدين، وعلى النقيض من ذلك، وبنفس المنطق راح أولئك العلمانيّون المدعون يمسكون بعين العصا؛ ليحذرونا من هجمة الاتجاه الظلامي الرجعيّ؛ المتمثل في جماعات الإسلام السياسيّ والإرهاب.

ذلـك ما دفعنا للقول بأن العبثية التـي نعيش فيها وأفضت إلى ذلك الواقع المتردي كان نتيجة منطقية لتهافت الخطاب الديني وحمق المشروع العلماني.

❐❐❐

العنف والتطرف الديني ومستقبل الإسلام

لقـد اعتمد النهج الخطابي الدعوي الحديث على ثلاثة مناهج؛ هي المنهج النقـدي، والمقـارن والوصفـي؛ لإثبات العمـد والركائز الرئيسـة التي تعبر عـن جوهر الإسـلام وهويته، واجتهـد الدعاة في دحـض الآراء الطاعنة في الإسـلام؛ اسـتنادًا إلى الوقعات التاريخية والأسـاليب الشرعية المستمدة من القرآن والسـنة وسيرة النبي، ثم راحوا يحللون بنية الثقافة الغربية ويقابلون بين سـوالبها وإيجابيات الفكر الإسـلامي، وأخيرًا عكفوا على توضيح القيم الأصيلة المسـتمدة من الإسـلام؛ لبناء الحضـارة والمدنيّـة، ويمكننا تلخيص متون الخطابات الدعوية التي ظهرت منذ أخريات القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين في ما يلي:

- ❐ أن الإسلام لا يناهض العلم، ولا يحجر على المفكرين والمبدعين، ومن ثم: فهو ليس راديكاليًّا أو رجعيًّا أو شيفونيًّا أو متعصّبًا.
- ❐ أن الإسـلام يدعـو إلى التجديـد والتحديـث، ويفصل بـين الثوابت التي هـي عمد الهوية الإسـلامية والمتغيرات الحضاريـة التي تتبدل تبعًا للسـنن الكونيّة والمتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ومـن ثم: فتح باب الاجتهاد عـلى مصراعيه لمن لديه الدربة والدراية بأصول الدين وضوابطها الشرعية.